-٢-

العلاقات مع مملكة بيت المقدس الصليبية

obeikandl.com

العلاقات مع مملكة بيت المقدس الصليبية

مثلت مملكة بيت المقدس الصليبية العدو الرئيسي للدولة النورية ، و عاصر حكم نور الدين محمود اثنين من كبار الملوك الصليبيين هما بلدوين الثالث ،و عموري الأول ، وحرصت الدولة النورية علي مواجهة المملكة الصليبية بكافة الوسائل الممكنة سواء الحربية أو بالطرق السلمية من خلال عقد الهدنات ، ووجهتها إلي الأسلوب السلمي بعض الدوافع الهامة علي المستويين الاقتصادي و العسكري .

ويلاحظ أن سياسة نور الدين تجاه المملكة الصليبية لم تحاول أسقاطها ، بل حاولت أن تتوازن عسكرياً معها ، علي اعتبار أن التوازن في حد ذاته يمثل مقدمة لمرحلة تالية من شأنها حسم الصراع لصالح المسلمين علي حساب الصليبيين .

و من الأهمية بمكان دراسة أوضاع مملكة بيت المقدس عندما عاصرتها الدولة النورية ، وأثر ذلك علي علاقاتها الخارجية .عاصر الدولة النورية أثنان من أقوى ملوك بيت المقدس ، بلدوين الثالث Baldwin III(١١٤٤- ١١٦٢م)، وعموري الأول Amalric I (١١٦٢-١١٧٤م)، ويعد بلدوين الثالث أول الملوك الصليبيين الذين ولدوا في أرض المملكة ، وقد سيطرت عليه والدته ميلزندا ، وتمكن من توسيع حدود المملكة و أمكنه الاستيلاء علي عسقلان عام ١١٥٣م ، وأمن بالتالي حدوده الجنوبية ، كذلك عمل علي تشييد عدة قلاع ، و حصون من أجل تدعيم مناطق سيادته في مواجهة أعدائه المسلمين ، وأيضا سعى إلي حماية إمارتي طرابلس و أنطاكية من خطر الفوضى الداخلية [1]، والأخطار الخارجية ،و هدف إلي كسب عون الإمبراطورية البيزنطية لتساعده في مواجهة الأحداث في شمال الشام . **أما** الملك عموري الأول فإنه أراد توسيع حدود المملكة هو الآخر، و عمل علي غزو مصر ،و إخضاعها لسيطرته دون جدوي ، وسعي إلي طلب العون البيزنطي في

١-عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦٤٧.

و عن بلدوين و سياسته الخارجية أنظر :

عبد اللطيف عبد الهادي ، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية في عهد بلدوين الثالث (١١٤٦- ١١٦٣م) رسالة ماجستير ، كلية الآداب –جامعة عين شمس عام ١٩٩٠م .

في مشاريعه التوسعية خاصة ضد مصر . وقد توجهت السياسة الخارجية النورية تجاه المملكة اللاتينية من خلال جملة دوافع دينية ، واقتصادية ، و سياسية ، و عسكرية .

و قد احتلت الدوافع الدينية مكانة بارزة من بين الدوافع المحركة للسياسة الخارجية النورية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولاشك في أن تلك المرحلة من الصراع الإسلامي الصليبي يمثل احدى صفحات حركة الجهاد الإسلامي حينذاك ، ويلاحظ أن المؤرخين المعاصرين ؛ تفيض كتاباتهم بالحديث عن طابع الجهاد الواضح في حرب نور الدين ضد الصليبيين ، وقد أوضحوا الطابع الديني لشخصيته ، و شاركهم في تعميق ذلك الاتجاه ابن الأثير ، وامتد الأمر إلي المؤرخين المتأخرين ،و اعتبروه من العناصر المتصوفة [1] ،و الواقع أن نور الدين محمود جاهد ضد الصليبيين ، وأن روح المرابطة ظهرت جلية في عصره من خلال ميله الشخصي للجهاد [2] ، وقد رأي في نفسه المدافع الرئيسي عن الإسلام ، وواصل الحرب علي أساس ديني [3] ، مع عدم إغفال أهمية الدافع الأخرى بطبيعة الحال ، ومع ذلك فقد وجد بعض الباحثين لاسيما من الغربيين من أنكر ذلك الاتجاه لأسباب استشراقيه تعصبية لا تخفى علي أحد ، وفي مقدمتهم المؤرخ الأمريكي جون لا مونت الذي أنكر الطابع الديني لحروب نور الدين محمود ، وفضل الأخذ بالدوافع

١- عن الجانب الديني في شخصية نور الدين محمود انظر :

الوهراني ، منامات الوهراني ، ص ١٤ ، ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٦٤ ، الهروي ، الإشارات إلي معرفة الزيارات ، تحقيق جاكلين سورديل ،ط. دمشق ١٩٥٣م ، ص ١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص٣١٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٤٤ ، العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامي ، ص ٣٢ ، الديار ، الخميس ،جـ٢ ، ص ٣٦٥ ، اليافعي ، مرآة الحنان ،جـ٣ ، ص ٣٨٧ .

٢- سالم ، طرابلس الشام ، ص ٢٤٩ ، حبشي ، نور الدين و الصليبيين ، ص ١٠٠ ، كلود كاهن ، تاريخ العرب و الشعوب الإسلامية ، ت . بدر الدين قاسم . ط. بيروت ١٩٧٣م ، ص ٣٦٢.

3-Strevenson, The Crusaders,p.155.

السياسية ، ورأي أنه لم يكن مهتماً بالحروب الدينية اهتماماً خاصاً ، وأنه حارب الصليبيين علي أساس أنهم وجدوا في مجال توسعه الطبيعي [1] ، وأن رغبته في توسيع رقعته مملكته في الاتجاه الوحيد الممكن هي التي أملت عليه السياسة التي اتبعها في علاقاته مع جيرانه اللاتين ، ويذكر أنه لم يكن للدين دخل في ذلك ، وأن مراجعة أعماله الحربية توضح دافعه الرئيسي كان سياسياً [2]، و الواقع أن الرغبة في القضاء علي فكرة الجهاد الإسلامي التي ازدهرت في مرحلة الحروب الصليبية كان أحد الأهداف الأساسية للمستشرقين الذين تناولوا بالدراسة تلك المرحلة ، وذلك من أجل القضاء علي النماذج التاريخية للفكرة ذاتها و اقتلاعها من أساسها ، خاصة أنها فكرة محورية في الإسلام . و من ناحية أخرى ؛ فإن المصادر التاريخية المعاصرة - كما أوضحت سلفاً – أكدت علي الطابع الديني لشخصية نور الدين محمود ، و بصورة ليس من اليسير إنكارها ، ولا نزاع في أن قائداً له مثل تلك المقومات الشخصية ، من الممكن أن تكون سياسته تجاه مملكة بيت المقدس حركتها دوافع دينية مع وجود دوافع أخرى بطبيعة الحال ، وشكلت كافة تلك الدوافع مجتمعة تحركات السياسة الخارجية للدولة النورية تجاه الكيان الصليبي في بلاد الشام بصفة عامة .

وتبقي هناك بعض الدوافع الأخرى التي تأتي في المرتبة الثانية ، وهي الدوافع الاقتصادية و السياسة و العسكرية ، أما الدوافع الاقتصادية فنجدها ماثلة من خلال طبيعة الموقع الجغرافي لكل من الدولة النورية ومملكة بيت المقدس الصليبية ، إذ وصفت الأولي بأنها دولة داخلية حبيسة دون نطاق ساحلي و المنافذ البحرية علي امتداد الساحل الشامي ثم إخضاعها للسيادة الصليبية حيث ادرك الصليبيون أهميتها الكبيرة لاستمرار اتصالهم بأوروبا و حصولهم علي الدعم البشري ،و المالي ،و المعنوي ،و كان تصريف قسم مهم من تجارة الدولة النورية يتم من خلال موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية ، كذلك أرادت تلك الدولة الحفاظ علي سلامة الطرق

١- لا مونت ، الحروب الصليبية ، ص ١١٤.

٢- نفسه ، نفس المرجع و الصفحة .

التجارية بين دمشق ذات الأهمية التجارية ،و منطقة الجليل الأعلى في شمال فلسطين بوصفها حلقة وصول إلي الساحل الشامي البالغ الحيوية [١] .و علي الصعيد السياسي ؛ مثل الصراع مع تلك المملكة أهمية خاصة للدولة النورية ، و لا نزاع في أن مواصلة الصراع الحربي معها كان ضرورياً ؛ من أجل أن يقوم نور الدين محمود بدوره في مجاهدة الكفار ، ومثل هذا واجباً شرعياً ضرورياً لدعم حكمه ، وتوفير الاستقرار السياسي له ، وعدم قدرة المعارضة علي كسب أعوان لها طالما أنه يقوم بتأكيد هذا الدور الشرعي الحيوي ، أضف إلي ذلك ؛ أن الدولة النورية بعد نجاحها في توحيد بلاد الشام ،و الجزيرة بقبضة واحدة مثلت مملكة بيت المقدس منافساً سياسياً خطيراً لها ، فإذا أضفنا إلي ذلك أن ذلك المنافس كان كياناً دخيلاً وافداً علي المنطقة ، ولا يملك وجوده أصلاً أدركنا حتمية الصراع بين الطرفين لكافة الدوافع السابقة سواء الدينية أو السياسية أو الاقتصادية .أما بالنسبة للدوافع العسكرية ؛ فقد أدركت الدولة النورية أن تجييش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقي الدوافع السابقة، و كانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية ،و تحركاتها السياسية ، وقد حرصت الدولة النورية علي الاستيلاء علي عدد من القلاع و الحصون الاستراتيجية من أجل أضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكرياً ،و لتأمين حدود الدولة النورية ، و لإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور مستقبلاً إلي ما هو أبعد من هذا ، ونعني به التفوق العسكري علي الوجود الصليبي ، وهو ما تحقق في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي .

تعد مشكلة الحورانية من أهم الأحداث السياسية التي جعلت نور الدين محمود يواجه بدعمه العسكري مملكة بيت المقدس ، و مطامعها في دمشق ؛ إذ تمرد الأمير الأرميني الأصل التونتاش[٢] ، وهو غلام أمين الدولة كمشتكين التركي ،و الذي تولي حكم بصري [٣]

١- ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٥٣.

٢- ورد اسم التونتاش لدي ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٧ ، التنتاش عند ابن واصل مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٢٩ ، والتون طاش من جانب ابن ايبك الدواداري المضيئة ، ص ٥٦٩ ، وأفضل الصورة التي ورد عليها الاسم لدي ابن القلانسي المعاصر للأحداث بالإضافة إلي صلته بديوان الإنشاء .

٣- أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ /ق١، ص ١٣٠ .

،و صرخد [٢] – تمرد علي سيده معين الدين أنر أتابك دمشق [٢] ، ولم تلبث الأحداث أن تطورت مسرعة في عام ١١٤٧م [٣] ، إذ أدرك التونتاش عدم وجود قوة مسلمة تعاونه علي تمرده علي سيده فلجأ إلي الصليبيين . في عهد الملك بلدوين ، إذ أدرك التونتاش عدم وجود قوة مسلمة تعاونه علي العرش مليزندا ، طالباً منهم العون الحربي . وأن يستولوا علي بصري و صرخد في حالة تدخلهم العسكري في مقابل أن يكون سيداً علي إقليم حوران [٤] .

و ربما شجعه علي ذلك وفاة الملك الصليبي فولك الخامس و انتهاء سياسته الدفاعية و مجيء بلدوين الثالث – الملك الشاب الطموح - إلي حكم المملكة [٥] ، وقد توافرت دوافع حيوية دفعت

١-بعدت بصري مسافة ١٤١ك .م عن دمشق و عدت قصبة إقليم حوران ، أما صرخد فبعدت عن السويداء بنحو ٣١ك.م و امتازت بجبل بركاني ينبت عليه قلعة حصينة ، عنها انظر : William of Tyre , Vol.II.p146- 147.

ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص ٢٧٤ ، ابن عبد الحق البغدادي ، مراصد الاطلاع ،جـ١ ، ص ٢٠١ ، جـ٢ ، ص ٨٣٨ ، السيوطي ، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق أحمد رمضان ، ط، القاهرة ١٩٨٢م ،جـ١ ص ٢٨٢ ، يوسف سماره ، جولة في الإقليم الشمالي ،ط. القاهرة ١٩٦٠م ،ص ١٠٢.

٢- عن تمرد التونتاش أنظر :

ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ١٢٩ ، العريني ، الشرق الأوسط ، ص ٥٣٩، حبشي ، نور الدين محمود و الصليبيون ، ص ٤٣.

٣- يوجد خلاف حول تحديد بداية المشكلة الحورانية فيذكر ابن القلانسي أحداثها ضمن حولية عام٥٤١هـ/ ١١٤٧م ، انظر ص ٢٨٩ ، بينما يجعلها سبط بن الجوزي ، ضمن حوادث٥٤٦هـ/ ١١٥١م ، مرآة الزمان ، ق١/ جـ٨ ، ص ٢٠٩ – ص ٢١٠ و الأرجح تحديد ابن القلانسي المؤرخ الدمشقي الرسمي المعاصر ، وقد اخذ به عدد من الباحثين أنظر : عاشور ، الحركة الصليبية ،جـ٢ نص ٦١١ ، رنسيمان ، الحروب الصليبية ،جـ٢ ، ص٢٠٩ ، العريني ، المرجع السابق ، ص ٥٤١.

٤- ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٩. William of Tyre , Vol.II.p146-.

حسين مؤنس ، نور الدين محمود ،ص ٢٠٣ ، عاشور ، المرجع السابق ،جـ٢ ،ص٦١٧ ، فايد عاشور ، جهة المسلمين ، ص ٢١٢،

٥- حسن حبشي ، المرجع السابق ، ص ٤٣.

و أمام دعم الصليبيين للتونتاش أرسل معين الدين أنر يطلب مساعدة صهره ضدهم [١]، وقد تقدم نور الدين محمود و ما معه من قوات حتى بلغ دمشق [٢] ، ويلاحظ معاونة سيف الدين غازي لمعين الدين آنذاك ، وحاول من بصرخد كسب الوقت فأرسلوا في طلب الأمان إلي أن يصلهم الدعم الصليبي [٣]، ولكن تمكنت القوات المسلمة المتحالفة من الاستيلاء علي بقصرى من زوج التونتاش ، و منعت الصليبيين من الاستيلاء عليها [٤] و ألحقت الهزيمة بهم [٥] ، وكذلك بالنسبة لصرخد ، ولم يسع معين الدين إلي الاستمرار في تتبع الصليبيين خلال انسحابهم [٦] ، والذي تكبدوا فيه خسائر فادحة [٧]، أما التونتاش فإنه استحضر إلي دمشق حيث تم تسميل عينيه و اودع السجن [٨] .

١- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٩،

William of Tyre , Vol.II.p153

كرد علي ، خطط دمشق ،جـ٢ ، تيسير بن موسي ،غزوات الفرنج ، ص ١١٨ .

٢- سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ،جـ٢ ، ق١ ، ص ٢٠٩

William of Tyre , Vol.II.p151

قدرت قوات نور الدين بنحو أربعة آلاف ، أنظر :

سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

٣- ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٩.

٤- نفسه ، نفس المصدر و الصفحة .

٥- سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ٢١٠.

٦- ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠.

٧- يقول وليم الصوري لقد أجهدت قواتنا في الطريق و تزايدت قوات المسلمين بينما قواتنا أخذت في التناقص و أصابها القتل و الجرح William of Tyre , Vol.II.p151

و عن المشكلة الحورانية بالتفصيل أنظر :

William of Tyre , Vol.II.p146- 153, Eliseeff, Nur Ad- Din, T.ll ,pp.403-406.

٨-ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ١٢٩.

و لا مراء في أن المشكلة الحورانية جعلت نور الدين محمود يواجه لأول مرة خلال تلك المرحلة المبكرة من حكمه في حلب ، مملكة بيت المقدس ، كذلك أثبتت الأحداث مدى أهمية دعمه العسكري لأتابكية دمشق إذ لم تكن لتستطيع صد الهجوم الصليبي بدون عونه الحربي ، وأظهره ذلك علي مسرح الأحداث السياسية بصورة أكبر من ذي قبل علي نحو دعم مركزه أمام رعاياه خلال تلك المرحلة الأولي من حكمه .

و علي المستوى الصليبي ؛ كشفت المشكلة الحورانية أن القيادة الصليبية بدأت عهدها بإظهار عدم الحنكة السياسية ، إذ أنها اتجهت إلي محاربة أحد حلفائه من أجل شق عصا الطاعة عليه ، و أوضح موقفها أن مطامعها السافرة في إقليم حوران التابع لدمشق كانت أكبر من أية تحالفات سياسية معها ، ولا شك في أن تلك الأحداث وجهت لطمة قوية للتحالف الدمشقي- الصليبي ، وجاءت أحداث الحملة الصليبية الثانية لطمة مجهزة لذلك التحالف الهش .فمعلوم أنه كان لسقوط إمارة الرها الصليبية ١١٤٤م في عهد الأتابك عماد الدين زنكي [١] دوره في إثارة الغرب الأوروبي للقيام بحملة صليبية علي بلاد الشام ،و الجزيرة ،و هي الحملة الصليبية الثانية [٢] ، لإنقاذ الكيان الصليبي من التداعي بعد أن سقطت أولي الإمارات الصليبية ، وقام البابا يوجين الثالث

١- ابن الأثير ، الباهر ،ص ٦٦- ٧٠.

Michel le syrien, chronique, ed Chabot,T.III,p.260-262,Rohricht,Bitrage zur geschichte der kreuzzuge Band, Berlin 1874,Erster,p.57.

٢-عن الحملة الصليبية الثانية بالتفصيل أنظر :

William of Tyre,vol.Ii ,pp.163-194, Anonymous Syriac chronicle ,trans .by Tritton. JAS, 1933,part ,pp.298-299, Odo of deul, De profectione Ludovici VII in Orienten ,ed V.G.Berry,New York 1948,pp.7-143.

ابن القلانسي ، ذيل دمشق ،ص ٢٩٨- ص٣٠٠.

Berry ," The Second Crusade", in setton, The Crusades, vol,I,pp.463- 512.

مونروند ، تاريخ الحروب المقدسة في الشرق ، ت . كبريوكبو ، ط. القدس ١٨٦٥م، ص ٤٣.

بالدعوة لها [1] ، و استغل قدرات برنارد دي كليرفوه [2] ، من أجل دعم المشروع المرتقب ، وقد قاد الحملة الملك الألماني كونراد الثالث ،و الملك الفرنسي لويس السابع ، وتمكنت من الوصول إلي بلاد الشام بعد صعوبات عديدة .

و علي الرغم من العلاقات القائمة بين أتابكية دمشق و مملكة بيت المقدس ، إلا أن الصليبيين قرروا غزوها ؛ إذ أن غزوها سيحول دون تحالف إسلامي بين شمال الشام ووسطه ، ثم أن قربها من القدس سيسهل احتلالها حيث لن توجد حينذاك خطوط تموين طويلة للقوات الصليبية ، و يمكن تكوين دولة صليبية تسعي إلي تصفية بقية مراكز الوجود الإسلامي في بلاد الشام ، فإذا أضفنا إلي ذلك الأهمية الاقتصادية لها لاسيما علي المستوى الزراعي ، و التجاري ، لأدركنا مدى اتساع أحلام الصليبيين بغرض الهيمنة عليها ، و بالإضافة إلي أن ذلك سيؤدي إلي إنهاء مشكلة أمن الجليل أو القسم الشمالي من فلسطين ، و لاشك في أن تلك المشكلة كلفت مملكة بيت المقدس الكثير من طاقاتها العسكرية [3] .

و أمام إدراك معين الدين أنر لعزم الصليبيين التقدم صوب أتابكيته لم يجد مناصاً من طلب العون من صهره مرة أخرى ، وكان قد اختبره خلال المشكلة الحورانية ، ووجده يقدم له العون دونماً تردد ، أما نور الدين فإنه وجد في طلب دمشق فرصة لزيادة تدخله في شؤونها علي نحو يضمن له في النهاية إحكام قبضته عليها .

عن ذلك أنظر :

Eugene III writing to king Louise Vll of France and his Subjects proclaims , the second crusade on God,s behalf , March 1146" in crusades Idea and Reality, London 1981,by Louise and Jonathan riely-smith ,pp.57-59,Eugene III announce acrusade, December I,1145", in Asource Book for Medieval History, by Thatcher , New York 1905,pp.526-529.

٢- عن برنادرد دي كليرفوه أنظر:

Vacanard, Vie de saint Bernard Abbe de Clairvaux paris,1 895,T.I,pp.227-249,De Brower , Saint Bernard home d,Eglise, paris 1953,pp.47-57.

٣- عن الصراع الإسلامي الصليبي بشأن منطقة الجلبل الأعلي أو إقليم الجليل الذي كانت عاصمته طبرية أنظر :=

و لا شك في أن معين الدين أنر كان في موقف لا يحسد عليه ، إذ صار بين شقي الرحي عدو مسلم في الشمال يطمع هو الآخر في نفس ما يطمع فيه الصليبيون ، غير أنه لم يكن هناك مفر من طلب عون سلطان حلب لمواجهة العدو الصليبي خلال تلك المرحلة ، ثم مواجهته فيما بعد و تحجيم خطره .

و بالفعل أرسل معين الدين انر برسائله لطلب عون نور الدين ،و أخيه سيف الدين غازي ، وكلاهما أرسل إمدادات ضخمة لمساعدته [١] .

وقد قام الصليبيون بحصار المدينة في عام ١١٤٥م ، ولكن الحصار و باء بالفشل ، وذلك بفضل الدفاع المستميت للدماشقة الذين خشوا من احتلال صليبي لمدينتهم ، وبفضل الدعم الحربي لنور الدين محمود ، ولا شك في أن هذا الدعم قد قوي خطوط دفاع المدينة في مواجهة أعدائها ،كذلك حذر سيف الدين غازي الصليبيين من تقدمه صوب المدينة لقتالهم ، وثمة عوامل أخرى أدت إلي فشل الحملة ، منها وجود الخيانة في صفوف الصليبيين [٢] ،علي نحو جعلهم يقعون في أخطاء عسكرية فادحة أدت إلي هزيمتهم ، كذلك شب النزاع بينهم حول من يحكم المدينة بعد أسقاطها [٣] ، وأمام كافة تلك الملابسات اضطر الصليبيون إلي الانسحاب .

= ليلي طرشوبي ، إقليم الجليل فترة الحروب الصليبية - في القرن الثاني عشر الميلادي – رسالة دكتوراه غير منشورة – كلية الآداب – جامعة القاهرة لعام ١٩٨٧م ، ص ٦٢-ص٨٢.

١- ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ١ ، ص ١١٢ ؛ الذهبي ، العبر ،جـ٤ ، ص ١١٧ ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ص ٤٧ ؛ ابن أيبك ، الدرة المضيئة ، ص ٥٥١ ؛ الحريري ، الإعلام و التبيين ، ص ٧٦؛ ابن العماد الحنبلي ، ص٤٧ ، شذرات الذهب ؛ جـ ٤ ، ص ١٣٤ ، ويلاحظ أن ابن الجوزي و النويري لا يشيران إلي الدعم النوري لدمشق خلال الحملة الصليبية الثانية علي الرغم من اتفاق جمهرة المؤرخين علي ذلك ، أنظر رواية كل منهما للأحداث :
ابن الجوزي ، المنتظم ،جـ٩، ص ١٣١ ، النويري ، نهاية الأرب ،جـ٢٧ ، ص ١٥٠-ص ١٥١.

أيضا: Berry ,The Second Crusade,p.508.

2- William of Tyre , vol.II,p194,John of Wurzburg, Description of the of Holy Land, Trans. Stewart ,P.P.TS, vol v,London 1894,p.21.

3- Berry , Op .cit,509.

و الملاحظ أن نور الدين محمود أتجه إلي مقاتلة مملكة بيت المقدس عن طريق دمشق ، إذ أن الأسرة البورية ، و سيطرتها عليها حالت دون أن يقوم بصراع أكبر مع المملكة ، كذلك لم يشأ – خلال تلك المرحلة - أن يرمي بكل ثقله في دعم دمشق خشية هزيمتها ،و اندحار قواته ، علي نحو يهدد مركز دولته في حلب في مواجهة إمارة أنطاكية في الشمال .هكذا ؛ فشلت الحملة الصليبية الثانية في تحقيق هدفها الرئيسي بإسقاط دمشق ، و مع ذلك نجحت في تدعيم نفوذ نور الدين محمود بصورة أكبر ، فعلي الرغم من خشية الدماشقة إلا أنهم صاروا علي علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث [١] ، وتدعم وضعه السياسي في شمال الشام ، بصورة أقوي ، فقد أعترف الدماشقة ضمنياً بقوة نفوذ ه الحربي ، و السياسي ، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس [٢] حليفة الأمس .

لقد أظهرت الحملة مدى التنافس بين الدول الأوروبية المشاركة فيها ، كذلك زادت من حدة الصراع بين اللاتين ، و البيزنطيين ، فضلاً عن إثبات ضيق أفق السياسة الخارجية للمملكة الصليبية ، علي نحو جعلها تحارب أقرب حليف لها في صورة أتابكية دمشق ، وأدي ذلك إلي انهيار التحالف بين الجانبين بصورة كاملة ، فإذا كانت المشكلة الحورانية من قبل وجهت له ضربة قوية ، فإن الحملة الصليبية الثانية جاءت أحداثها لتجهز في النهاية علي حلف لم يكتب له البقاء .كذلك جاءت الحملة الثانية جاءت أحداثها لتجهز في النهاية علي حلف لم يكتب له البقاء ، كذلك جاءت الحملة لتلقي الضوء علي مدى الضعف الذي وصلت إليه أتابكية دمشق ، أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبي علي المدينة ، ولذلك طلبت العون العسكري الخارجي ، ولاشك أن ذلك الوهن قد أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة ،و علي نحو جعله يخطط أكثر من ذي قبل لإسقاط المدينة في قبضته .

و لا نغفل أن مملكة بيت المقدس أدركت من خلال تلك الحملة ، أن سلطان حلب لن يسمح بوجود صليبي يتركز جنوب سلطنته ، وأنه سيبذل جهده لدعم دمشق ضد أعدائها ، من الطبيعي أن نلاحظ أنه حرص علي استمرار وجود دمشق خلال تلك المرحلة علي الأقل في قبضة قوة مسلمة حتى لا يتهدد منطقة شمال الشام علي المستويات العسكرية و الاقتصادية ، إذ أنها ارتبطت بروابط قوية مع دمشق

١- أنتوني بردج ، الحروب الصليبية ، ت. غسان ،ط. دمشق ١٩٨٥، ص ١٥٩.

٢-عصام الدين عبد الرؤوف ، بلاد الجزيرة ، ص ١٧٥.

ومع ذلك ؛ فعلي الرغم من الإخفاق الكبير الذي منيت بـه السياسة الصليبية ، إلا أنها تمكنت من تحقيق مكسب هام في جنوب الشام علي نحو وجه تحدياً قوياً لنفوذ نور الدين محمود ، و ذلك بالاستيلاء علي عسقلان [١] ، إذ تمكن الصليبيون في عهد الملك الطموح بلدوين الثالث من إسقاط عسقلان في عام ١١٥٣م [٢] .

و جاء ذلك في وقت ضعفت فيه الخلافة الفاطمية في ظل تغلب الوزراء العظام ، وحقق الصليبيون بذلك انتصاراً مزدوجاً علي نور الدين محمود و الفاطميين و انتصارهم علي نور الدين تفوق علي انتصارهم علي الفواطم ، لن الأخيرين كانوا قد وهنوا ، ولم تعد دولتهم تمثل خطراً بالغاً علي الوجود الصليبي ، بينما نور الدين محمود مثل قوة سياسية ، و حربية متوثبة في شمال الشام تطمع في دمشق .

و تأتي أهمية الانتصار الصليبي من خلال إدراك أهمية عسقلان نفسها ، فقط مثلت مركزاً تجارياً هاماً علي الساحل الفلسطيني ، وقاعدة للأسطول الفاطمي ، وبسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية في الشام ، وبذلك امتدت السيادة الصليبية علي طول الساحل الشامي من الأسكندرونة شمالاً حتى غزة جنوباً ، ومهد ذلك السبيل أمام

١-وقعت عسقلان علي بعد اثني عشر ك.م ، إلي الشمال من غزة علي الساحل الفلسطيني ، عنها : اليعقوبي ، كتاب البلدان ، نشر دي جويه ،ط. ليدن ، ص ١٢٩ ؛ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، نشر دي جويه ،ط. ليدن ١٨٨٢م ، ص ١٠٣ ؛ الهروي ، مقتطفات من رحلته ، نشر تشارلز شيفر ، AOL,T.,I,Annee1881 ، ص ٦٠٨ ، الإدريسي ، نزهة المشتاق ،جـ٤ ، ص ٣٣٧ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ،ط. ليبسك ،جـ٣ ، ص ٦٧٢- ٦٧٣ ،

Theodorich , Description of the Holy Land . Trans. Hubert , PPTS,Vol .V. ,p.55.

2- William of Tyre , vol .II,pp.184-234, Anonymous Syriac Chronicle ,p.301,

ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ، ص ٧٧ ؛ الباهر ، ص ١٠٦ ؛ العماد الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٢٥ ؛ ابن شداد الحلبي ، الأعلاق الخطيرة ، ص ٢٥٨- ٢٦٠ ، سالم و العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر و الشام ، ط. بيروت ١٩٧٢م ، ١٠٨ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٩٨ .

Mayer , The Crusades , p. 115 ,pernoud, The Crusades , pp.137- 144.

الصليبيين لغزو مصر [١] و قد احدث ذلك تفوقاً استراتيجياً للمملكة الصليبية في حدودها الجنوبية بينما عجز نور الدين محمود عن تقديم المساعدة لعسقلان لوقوف دمشق عقبة أمام تحقيق ذلك .

هكذا توسع بلدوين الثالث في اتجاه الجنوب ،و أضاف إلي مملكته العديد من المزايا الاستراتيجية ، بينما نور الدين في الشمال امتازت حدوده مع إمارة أنطاكية بعدم التغيير الجوهري ،و لم يحقق انتصاراً حاسماً كذلك الذي حدث في عسقلان ، ومع ذلك فإن الموقف تطور أفضل لصالح الدولة البيزنطية بإسقاط دمشق عام ١١٥٤م ، ولا شك أن سقوط عسقلان في قبضة الصليبيين حفز نور الدين إلي ضرورة الإسراع بالسيطرة علي ملك البوريين .

وقد شهدت العلاقات بين الدولة النورية ، ومملكة بيت المقدس نشوب معركة بانياس [٢] عام ١١٥٧م ، والتي وقعت في وقت كانت تنفذ فيه معاهدة سلمية بين الجانبين إلا أن الملك بلدوين الثالث خرقها .

و تتجلي بوضوح أهمية ثروات المنطقة من الناحية الزراعية ،و الرعوية ، و ميزتها الاستراتيجية كعوامل دفعت بالصليبيين إلي نقض شروط المعاهدة ،و إعلان الحرب علي الدولة النورية ، فقد توافرت في بانياس المراعي الغنية بقطعان الماشية [٣] ، كذلك عرفت بأهمية إنتاجها الزراعي . و حيث وجد الفلاحون ، و الرعاة طمع

١- مؤنس عوض ، التنظيمات الدينية ، ص ٤٧٧ .

٢- وقعت بانياس علي بعد واحد و عشرين ميلاً من بحيرة طبرية ، بالقرب من شواطئ بحيرة الحولة ، وهي تختلف عن بانياس المدينة الساحلية علي شاطئ البحر المتوسط ، عن موقع بانياس أنظر :

ابن شاهين ،زبدة كشف الممالك ، ص ٤٦.

Fulcher of Chartres , Hist of the Expedition to Jerusalem , p.205 Emoul,Emoul,s account of Palestine , Trans. Conder ,PPTS , vol ,VI, London 1896,p.51.

عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبي ،ط. القاهرة ١٩٦٦م ، ص ١٩٤- ١٩٥.

و عن بانياس في عصر الحروب الصليبية بصفة عامة انظر هذه الدراسة :

آمال هاشم ،بانياس الداخلية في الصراع الإسلامي في عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥- ١٢٩١م) رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١٩٨٧م.

3- William of Tyre ,vol .II,p.256.

الصليبيون في أسرهم و استرقاقهم للإفادة من طاقاتهم الإنتاجية ، وهذا يفسر عمليات الاسترقاق [١] ، التي حرص الصليبيون عليها عندما هاجموا المنطقة ، كذلك احتلت بانياس أهمية استراتيجية متميزة ، لذا وقعت بالقرب من دمشق في المنطقة الواقعة بينها وبين الجليل الأعلى بشمال فلسطين ، وإذا اعتبرنا عسقلان بوابة مصر فإن بانياس عدت بوابة دمشق [٢] .

و لاشك أن كافة تلك المغريات لعبت دورها في إغراء الملك بلدوين الثالث علي شن هجومه علي بانياس ، وكان الرعاة و الفلاحون المسلمون في المنطقة قد ارتكنوا إلي وجود معاهدة السلام مع الصليبيين ، و بينما هم منهمكون في عملهم هاجمت القوات الصليبية المنطقة بالقرب من بحيرة الحولة ، و قد قتل و جرح العديدون ، و تم سلب قطعان الماشية ، و أسر العديدون ، ويبدو أن الصليبيين أرادوا تحقيق انتصار كبير في حملتهم بدليل إشراكهم لأكبر العناصر لديهم قوة ، ونعني الاسبتارية [٣] ، و الداوية [٤] .

1-William of Tyre,vol.II,p.256.

2- Boase , kingdome and strongholds of crusades ,p.114.

٣- عن الاسبتارية أنظر :

-William of Tyre,vol.II,p.256

Delaville Le Roulex, " Inventaire de pieces terre santé de L,Hospital "ROL,III,Annee 1985,p.36-106.

king The knights Hosptallers in the Holy land ,London 1930. Cavaliero,The Last crusaders, London ,p.I.

نبيلة مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين ١٢،١٣ م، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة القاهرة لعام ١٩٧٤م ، سامي سلطان سعد الاسبتارية في رودس ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، بنفس الكلية لعام ١٩٧٥م ، مصطفي الحناوي ، جماعة الاسبتارية و دورها في الصراع الصليبي الإسلامي في عصر الحروب الصليبية (١٠٩٩- ١٢٩١م) ، رسالة ماجستير – كلية الآداب – جامعة المنيا ١٩٨٠م

٤- عن الداوية :

William of Tyre,vol.II,p. 524.

ومما يجدر الإشارة إليه أن مؤرخ المملكة الرسمي وليم الصوري ، أقر و أعترف صراحة بأن حملة بلدوين الثالث علي بانياس ، كانت خرقاً للاتفاقية المعقودة مع نور الدين ، وأن الأمر كان أبعد من أن يكون مجداً عسكرياً للمملكة الصليبية [١] .

طبيعي أن أحداث مهاجمة المنطقة عدت اختباراً قوياً لسيادة نور الدين محمود السياسية في دمشق ، إذ أن المعركة وقعت بعد ثلاث سنوات فقط من سيطرته علي المدينة ، ومن جهة أخرى كانت بادرة انتهاك لاتفاقيات السلام بين الجانبين ، ويبدو أن المملكة الصليبية كانت تهدف – فيما تهدف – إلي سبر أغوار نور الدين ،و معرفة قوته العسكرية ورد فعله ،ثم أنها من جهة أخرى جاءت استعراضاً واضحاً للقوة من جانب الصليبيين ، إذ أن المنطقة نفسها لم تكن تحتاج في غزوها إلي تلك الأعداد الكبيرة من الفرسان الصليبيين ، من أجل أحراز انتصار علي رعاة و فلاحين عزل ، ولكن المملكة حرصت علي أن تكون أعدادهم علي هذا النحو لإرهاب المسلمين في المنطقة ، وإحراج موقف الدولة النورية خاصة أنها فضلت الاتجاه السلمي خلال ذلك الحين ، بدليل عقدها معاهدة سلمية مع مملكة بيت المقدس خرقها الملك بلدوين الثالث

أمام كافة تلك الملابسات ، لم يكن هناك مفر من الرد العسكري و قد قام المسلمون بنصب كمين للقوات الصليبية كلل بالنجاح [٢] ، وقتل منهم الكثيرون [٣] ، و علي حد

= Barber, The trial of Templars, Cambridge 1982, prestage, chivalry,London 1925,p.13.

Delavile le roulx ،، Bulles pour L,ordre de temple, " ROL , XI , Annee1905-1809,pp.409-438.

إبراهيم خميس ، جماعة الفرسان الداوية و علاقاتهم السياسية بالمسلمين في الشرق الأدنى حتى نهاية حكم صلاح الدين الأيوبي ، رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية ، لعام ١٩٨٠م العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية و المسلمين في مصر و الشام (١١٩٣- ١٢٩١م) ، رسالة دكتوراه - غير منشورة بنفس الكلية لعام ١٩٨٣م ، مؤنس عوض ، التنظيمات الدينية ، ص ٣٧٤- ٣٨١.

1-William of Tyre,vol.II,p. 256.

٢- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٩، William of Tyre,vol.II,p. 260.

٣- نفس المصدر السابق ، ص ٣٣٩.

قول ابن القلانسي :" صاروا بأجمعهم بين قتيل ،و جريح و مسلوب و أسير و طريح " [١] وغنائم وفيرة ، وأمكنهم احتلال بانياس [٢] ، غير أن بلدوين الثالث تمكن من استردادها في نفس العام [٣] ، وإن عاد نور الدين ليفرض سيطرته عليها عام ١١٦٤م [٤] .

و لا مراء في أن الصراع علي بانياس علي هذا النحو ، و تداول سيادتها بين نور الدين و الصليبيين ، يدل بجلاء علي أهميتها البالغة علي نحو تنافس الطرفان من اجل ضمها إلي سيطرتها .

و يري البعض أن الصراع حول بانياس عكس أن قوى الفريقين كانت متوازنة [٥] ، والحق انه عكس علي نحو أكثر جلاء ، الأهمية الاقتصادية و الاستراتيجية لها ، و هي عوامل وجهت الصراع حولها بصورة عبرت عنها المصادر المعاصرة دون مواربة .

و من جهة أخرى اتجه نور الدين محمود إلي اتباع سياسة التخريب الاقتصادي في موارد أعدائه ، وسعي إلي إسقاط العديد من الحصون و المعاقل التابعة لمملكة بيت المقدس لتجريدها من مصادر قوتها .

ففي عام ١١٥٨م وقعت معركة السواد حيث حاول الجيش النوري الاستيلاء علي أحد الحصون الحيوية ، غير أن قوات الملك بلدوين الثالث أنزلت به الهزيمة [٦] . ولم تذكر المصادر العربية المعاصرة و اللاحقة إلا القليل عن أحداثها [٧] ، علي نحو يرجح أن الهزيمة كانت بالفعل كبيرة ، واتجهت القوات النورية بقيادة أسد الدين

١- ذيل تاريخ دمشق ،٣٣٩.

٢- عاشور ، الحركة الصليبية ،جـ٢ ، ص ٦٦٨.

٣- نفسه ، نفس المرجع ،جـ٢ ،ص ٦٦٨.

٤- أبو شامة ، الروضتين ،جـ١ /ق٢ ، ص ٢٥٦ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص ١٥٨ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،جـ٤،ص ١٨٨.

٥- حبشي ، نور الدين و الصليبيون ، ص ٩٣.

6- William of Tyre, vol .lI,p.272-273,Stevenson,The Crusaders,p.179.

٧- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٢.

شيركوه إلي مهاجمة بارونية صيدا في ذلك العام ، في وقت قيام أهلها بإعادة بناء ما هدمته الزلازل ، وتمكنت من سلب الكثير من الغنائم [١] ، وكذلك أخضعت حصن هام علي حدود بلاد العرب فيما وراء نهر الأردن عام ١١٦٥م ، حاول عموري الأول استعادته دون جدوى [٢] ، واستطاع الجيش النوري الاستيلاء علي حصن استراتيجي بالقرب من صيدا عرف بكهف صور ، و ربما سعى إلي ذلك بالبذل و البرطلة [٣] ، ومن ناحية أخرى هاجم مناطق هونين [٤] وخربها .

و طبيعي أن يتجه ملك بيت المقدس إلي اتباع نفس السياسة ، فقام بمهاجمة إقليم حوران عام ١١٥٨م ، وتم نهب الكثير من ممتلكات السكان المسلمين [٥] ، وبلغت القوات الصليبية داريا بالقرب من دمشق و اتجاهه صوب سلاجقة الروم عام ١١٧٣م ، وهاجمها و خرب مواردها الاقتصادية خاصة الزراعية [٦] ، في المنطقة الواقعة بين بصري و دمشق [٧] ، وعاود الكرة بعد ذلك بثلاثة أشهر تقريباً ، ونهب الغنائم و سبى السكان لاسترقاقهم [٨] .

---

١ - ابن القلانسي ،ص ٣٥٢ ، أسامة زكي ، صيدا ، ص ١٥٠- ص ١٥١.

2- William of Tyre,vol.II,p. 312.

مؤنس عوض التنظيمات الدينية ، ص ٤٨٧- ٤٨٨.

3- William of Tyre,vol.II,p. 312.

و يتجه أسامة زكي إلي تصوير الأمر علي أنه حصار لصيدا نفسها ، بينما نصوص وليم الصوري لا تدل علي ذلك ، كذلك فإنه يجعل تاريخ تلك الأحداث عام ١١٦٤م بينما يستفاد من نفس المصدر أنها وقعت غالباً في صيف ١١٦٥م حيث انه ذكر ذلك بعد إشارته لإطلاق سراح بوهيمند الثالث أمير انطاكية الأسير في حارم و اطلق نور الدين سراحه في صيف ١١٦٥م ، انظر : أسامة زكي ، المرجع السابق ، ص ١٥٢.

٤- ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص ٣٢٤.

٥- ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٣٥١ ؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٥٥.

6- William of Tyre,vol.II,p. 282.

7-Ibid,vol.II,p. 282.

8- Ibid ,vol.II,p. 282.

وعلي الرغم من تلك المعارك شبه المستمرة ، لاحت في الأفق أضواء باهتة لسلام شاحب ، متمثل في اتفاقيات هدنة قصيرة تراوحت بين الثلاثة أشهر، و العامين وقعت بين الطرفين .و من الأهمية بمكان دراسة دوافع السياسة السلمية التي أتبعها نور الدين محمود في بعض الحيان تجاه مملكة بيت المقدس ،و تتمثل في أبعاد استراتيجية ، و اقتصادية ، و عسكرية .و الواقع أن الدولة النورية لم تكن تستطيع أن تعيش بمعزل عن الدخول في علاقات تجارية مع القوى الصليبية في بلاد الشام لعدة اعتبارات ؛ إذ أن بعض المواد الخام وجدت في أرض أعدائها و كانت في حاجة إليها من أجل عمليات التصنيع ، ثم أن بعض الطرق التجارية الدولية التي مرت ببلاد الشام كانت منافذها في المناطق الساحلية الصليبية و كان تصريف تجارة الدولة النورية يحتم ضرورة وجود صلات ما من أجل ضمان وصول السلع إلي شاطئ البحر المتوسط ، و منه إلي أوروبا ،كذلك فإن المتاجرة مع مملكة بيت المقدس كانت تدر علي الدولة أرباحاً طائلة من عائد المكوس علي نحو يدعم ميزانيتها ، وتوجه إشارات إلي وجود علاقات وثيقة بين الجانبين علي المستوى التجاري [1] ، ويقرر ابن جبير أن " اختلاف القوافل من مصر إلي دمشق علي بلاد الإفرنج غير منقطع و اختلاف المسلمين من دمشق إلي مكة كذلك وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم ،و لا يعترض " ،و يضيف أن قوافل المسلمين تخرج إلي بلاد الفرنج ، و سبيهم يدخل إلي بلاد المسلمين [2] . و إذا كان نص ابن جبير المذكور يرجع إلي العصر الأيوبي ، فغنه يعد امتداداً طيباً لما كان موجوداً بصورة فعلية من قبل في عهد الدولة النورية .

---

١ -ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥٣ ، زكي حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطي ،ط. القاهرة ١٩٤٥م ، ص ٨٣ ، عمر كمال توفيق ، الدبلوماسية الإسلامية و العلاقات السلمية مع الصليبيين ،ط. الإسكندرية !٩٨٦م ن ص ١٠٧ ، جمعه الجندي ، حياة الفرنج و نظمهم في الشام خلال القرنين ١٢،١٣م ، رسالة دكتوراه غير منشورة – كلية الآداب - جامعة عين شمس لعام ١٩٨٥م ، ص ١٥٤- ١٥٦.

٢- ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥٣ ،

و انظر أيضا:

Burchard of Mont sion , pilgrimage of Burchard of Mont Sion,Trans. Stewart, p.p.T.s ,volXII,London 1896,p.103 ,Ludolph von suchem,Description of the Holy land, Trans. Stewart,PPTS , vol .XII,London 1896,p.55.

و من جهة أخرى ؛ فبالنسبة للصليبيين ، نتعرف أنهم كانوا يدخلون إلي دمشق ، و غيرها و غيرها من المدن المسلمة من حين لآخر من أجل " قضاء حوائجهم [١] ،و طبيعي من بينها عمليات الشراء ،و المتاجرة مثلما حدث عام ١١٥١م [٢] .

و يلاحظ أن التجارة مع الكيان الصليبي احتاجت إلي تراكم رأسمالي كبير ، من أجل تمويل نقل البضائع بكميات وفيرة ، و تجهيز الجمال و القوافل ، وتأمين سرها إلي غير ذلك ، و قد خضعت لسيطرة عناصر من كبار التجار الأثرياء ، و من أمثلتهم التاجرين نصر بن قوام ، و أبي در ياقوت ،و كانت كل تجارتهما مع المناطق الصليبية علي الساحل الشرقي للبحر المتوسط [٣] ، وامتلكا العديد من القوافل ، وعاونهما عدد وافر من المقارضين [٤] ، وحققا من وراء ذلك ثراءً عريضاً [٥] .

إن إيراد وضع التاجرين السابقين يدل بجلاء علي أن عمليات المتاجرة مع مملكة بيت المقدس الصليبية ، قد صارت حقيقة واقعة متخصصة علي نحو عبر عن ظاهرة التعايش السلمي بين الجانبين الإسلامي و الصليبي حينذاك .

ولاشك في أن الدولة النورية عندما كانت تهادن القوى الصليبية ، كانت تضع نصب عينيها المصالح التجارية ، بل أن تلك المصالح هي التي حددت – في بعض الأحيان – موقفها السياسي من أعدائها .

أما الجانب العسكري ، فتمثل في أن الحروب التي خاض غمارها الجيش النوري ضد مملة بيت المقدس كانت حروباً موسمية [٥] في الغالب ، ولم يكن يستطيع أن يواصل الحرب علي مدي العام بأكمله ، واحتاج لأن تكون بضعة أشهر لإراحة القوات من عناء

١- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٤.

٢- نفسه ، نفس المصدر و الصفحة .

٣- ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ٢٥٣.

٤- نفسه ، ص ٢٥٣.

٥- اتسمت الحرب بين الجيش النوري و الصليبيين بأنها موسمية ، وقد لاءم الربيع و الصيف القيام بالعمليات الحربية نظراً لأن فصل الشتاء في الشام انهمرت فيه الأمطار الناجمة عن الرياح الغربية العكسية ، وكذلك الثلج المتساقط في بعض المناطق مما نتج عنه أن تغطت أرض العمليات بالأوحال أو الثلوج الأمر الذي عاق تقدم الجنود ، ونقل آلات الحصار الضخمة كالمنجيقات ، حقيقة أن بعض العمليات جرت في الشتاء كان ذلك من النادر ، أنظر :

سمايل ، الحروب الصليبية ، ص ٧٣- ٧٤.

مدى العام بأكمله ، واحتاج إلي أن تكون هناك بضعة أشهر لإراحة القوات من عناء القتال ، ثم أن الحرب نفسها ضد الصليبيين كانت باهظة التكاليف من حيث الأسلحة ، وإعداد الجند ، وتوفير التموين اللازم ، و إعداد الدواب إلي غير ذلك ، ثم أنها مثلت استهلاكاً لموارد الدولة علي نحو هددها اقتصادياً ، وأمام تلك الاعتبارات كان الاتجاه السلمي مطلباً ضرورياً من وجهة النظر النورية ، ولا نغفل أيضاً أنها اتجهت إلي مهادنة مملكة بيت المقدس لكي تتفرغ للحرب في الجبهة الشمالية حيث إمارة أنطاكية ، أو لكي تواجه سلاجقة الروم ، وقد كان أخوف ما تخافه أن تقع بين شقي الرحي ، إمارة انطاكية ، وهي تشن هجماتها الحربية علي مركز الدولة التجاري في حلب ، ومملكة بيت المقدس تهاجم مركزها التجاري و الصناعي في الجنوب أي في دمشق ، إذ أن ذلك كان يعني استهلاكاً أكبر لطاقاتهما البشرية و المادية ، علي نحو أدى إلي تشتيت قدراتها و عدم تحقيقها لإنجازات كبيرة علي أي من الجبهتين .

و يلاحظ أن سياسة المسالمة تلك قديمة ، قدم مقدم الصليبيين إلي بلاد الشام منذ أخريات القرن الحادي عشر الميلادي ، عندما حرصت القوى المحلية الشامية الصغيرة علي مهادنة الغزاة من اجل البقاء ، وحتى دمشق نفسها في عهد الأسرة البورية اتجهت إلي مسالمة مملكة بيت المقدس ، ويزعم المؤرخون الرسميون - مثل العماد الكاتب الأصفهاني – أن دمشق كانت قبل أن يستولي عليها نور الدين عام ١١٥٤م تدفع ما يشبه الجزية للصليبيين ،و أنه منع هذا [١] ، غير أن ذلك القول لا يستند إلي الحقيقة في شيء ؛ إذ أن نور الدين قدم هو الآخر الموال لمملكة بيت المقدس من أجل شراء السلام المؤقت معها .

و علي ذلك نجد أن نور الدين اتجه إلي مهادنة المملكة سنة ١١٥٥م لمدة عام [٢] ، و في العام التالي ١١٥٦م تجددت الموادعة، وتم إرسال قطيعة للصليبيين قدرها ثمانية آلاف من الدنانير الصورية [٣] ، وفي نهاية العام الأخير تم ترتيب معاهدة لمدة عام مع

١- العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامي ، ص ١٦.

٢- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٣١.

٣- نفسه ، نفس المصدر ، ص ٣٣٦ ، أبو شامة ، الروضتين ،جـ١، ص ٢٥٨.

Gibb, The career of Nur Al-Din ,p.520-521, Stevenson ,The {rusders,p.p.174.

استمرار الفدية التي كانت الدولة النورية تدفعها [١] ، غير أن تلك المعاهدة خرقت عندما هاجم بلدوين الثالث مراعي بانياس [٢] ، كذلك عقدت معاهدة بين الطرفين لمدة عامين في عام ١١٦٠ [٣] ، و علي اثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام عام ١١٧٠م اتجه نور الدين إلي عقد هدنة مع عموري الأول [٤] ، ويضاف إلي ذلك أنه تم عقد هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر في عام ١١٧٣م [٥] ، وتم الاتفاق علي أن تدفع الدولة النورية للصليبيين أربعة آلاف من الدنانير الصورية [٦] .

و يلاحظ انه لم تصل إلينا وثائق خاصة بتلك الاتفاقيات ، وإنما وردت إشارات مقتضبة خاصة بها لدى ابن القلانسي ، وكذلك وليم الصوري .

وجدير بالتنويه ؛ أن تلك الهدنات احتوت علي وقف أشكال القتال بين الطرفين ، وتقدم الدولة النورية بمقتضاها المال للصليبيين ، ولم يحدث قط العكس أي أن يقدم الأخرون لتلك الدولة المال من أجل عقد هدنة معها ، وإذ لو وجه ذلك لأشارت إليه المصادر العربية الرسمية باعتباره من انتصارات الدولة علي أعدائها أن يقدموا لها المال صاغرين ، وإقدام نور الدين علي تقديم الفدية للمملكة اللاتينية يقدم دليلاً علي أنه في سبيل مصالح دولته سعي إلي " شراء " المسالمة مع أعدائه ، وأنه كان حريصاً علي تلك الاتفاقيات من أجل أن يتفرغ لشؤون دولته ، مواجهة أوضاعها الداخلية الأخرى .

لم تكن مدة الهدنات مع المملكة اللاتينية لتطول أكثر من العامين ، وطبيعي أنه مع الاحتكاك بين الجانبين أتضح لهما أن تلك الاتفاقيات السلمية لم تكن لتعيش طويلاً ، إذ أن كثيراً ما تم خرقها ، ولذا فإن إطالة مدتها لم يكن من ورائه فائدة ترجي .

1-- William of Tyre,vol.II,p.256,note(47) Stevenson ,The Crusaders,p.174.

2--- Ibid ,vol.II,p.256,not(47).

3-Gibb,The Career,p.523.

4- William of Tyre,vol.II,p. 371.

5- Ibid ,vol.II,p.282.

6- Ibid ,vol.II,p.282.

ومن ناحية أخرى ؛ يلاحظ أن نصوص الهدنات لم تتناول أمر المتاجرة بين الجانبين ، ويبدو أن العلاقات التجارية بينهما كانت من النشاط و الازدهار – و هذا أمر أكده الرحالة - علي نحو لم يدع إلي إعادة التأكيد عليه مرة أخرى ، ومع ذلك فيفهم ضمنيا أن الاتجاه السلمي بينهما كان مكن دوافعه عدم تهديده حركة التجارة بين الجانبين .

تركزت المعاهدات و الهدنات التي وقعتها الدولة النورية مع المملكة اللاتينية – وفق ما أمدتنا به المصادر العربية، و اللاتينية – تركزت في المدة من عام ١١٥٥م وعام ١١٧٣م ، ومعني ذلك أنها وجدت في خلال الثمانية عشر عاماً الأخيرة من عهد الدولة النورية ، أما المرحلة السابقة علي عام ١١٥٥م ، أي المرحلة من عام ١١٤٩م إلي ١١٥٥م فلم توجد بها أية هدنات ،و ذلك مرجعه – علي ما يبدو – إلي عدم اهتمام السياسة الخارجية النورية بجبهة مملكة بيت المقدس ، و ارتباطها خلال ذلك الحين بالجبهة الشمالية حيث إمارة انطاكية .

و طبيعي أن عقد كافة تلك الهدنات تطلب جهداً دبلوماسياً مكثفاً ، ومع ذلك فإن المصادر العربية ، و اللاتينية لا تقدم إشارات وافية عن أولئك السفراء الذين تنقلوا بين الجانبين .

أما تقييم سياسة نور الدين محمود الخارجية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية فنجد أنه لم يتمكن من إسقاطها ، ويبدو أن ذلك لم يكن هدفه الرئيسي بل أن هدفه كان توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام ، و الجزيرة ، و مصر ضد الصليبيين [١] ، وحصرهم في نطاق ساحلي ضيق ، و هذا ما كانت عليه مملكة بيت المقدس في أخريات عهده [٢] ، فسياسته قائمة علي إيجاد توازن حقيقي في القوى مع أعدائه ، علي أن يكون القضاء عليهم في مرحلة تالية ، تكفل بها الأيوبيون و من بعدهم المماليك .

كذلك فإن نور الدين كان من الدهاء علي نحو اتجه معه إلي عقد الهدنات مع الصليبيين حتى يريح قواته من عناء الحرب ، و يدعم قوته في آن واحد ، ولم تشهد ساحات الصراع بينه و بين مملكة بيت المقدس الصليبية معارك مندفعة يقضي فيها علي قواته

١- حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ص ١٣٧ ، اليسيف " الحياة الاقتصادية في دمشق في عصر ابن عساكر ، ضمن كتاب ابن عساكر ، ص ٣٠١ ، عاشور ، " حطين ، وقائع و عبر " ، مجلة العربي ، العدد (٣٤٤) ، يوليو ١٩٨٧م ، ص ٤٢.

٢- حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٧٧.

قضاءً مبرماً ، وحق للمؤرخ السرياني المجهول ، ولوليم الصوري أن يصفاه بالدهاء ، والحكمة [١] .

ويلاحظ أنه لم يسع إلي نقل الصراع مع الملكة إلي نطاق النشاط الاقتصادي لاسيما التجاري ، إذ قصر الحرب علي ساحاتها دون مجال التبادل السلمي و أفاد من حركة القوافل الصليبية في فرض المكوس علي نحو دعم اقتصاديات دولته ، و أمدها بالأموال اللازمة لاستمرار صراعها مع الصليبيين .

كذلك اتجه نور الدين إلي سياسة تخريب موارد أعدائه الاقتصادية ، وذلك من خلال القيام بعمليات التخريب ، و النهب في مزروعاتهم ،و دوابهم ،و ممتلكاتهم الأخرى ، وأيضاً عمل علي إسقاط العديد من القلاع التابعة للمملكة من أجل تجريدها من مصادر قوتها العسكرية مثلما سعى من قبل إلي تجريدها من قوتها الاقتصادية بتخريب مواردها

وهناك من تصور أن نور الدين قد عجز عن تحقيق نتائج حاسمة في صراعه ضد الصليبيين [٢] ، ووجد من المستشرقين من تحامل عليه فهاجمه سمايل ،و اتهمه بانعدام نشاطه المضاد لهم [٣] ، وأرجع ذلك إلي جبنه ،و انعدام روح المبادرة لديه و خوفه من التدخل البيزنطي لصالح الدول اللاتينية [٤] ، وأن الغزوات في عهده لم تكن تتسم بالطموح ، والواقع أن استعراض مراحل صراعه مع المملكة الصليبية تعكس لنا صورة مغايرة لذلك ، فالاستيلاء علي دمشق عام ١١٥٤م ، حسم أمرها تماماً لصالح السيادة الإسلامية ، ولم تستطع المملكة أن تفرض سيطرتها عليها ، لذلك فإن إخضاع

1-Anonymous Syriac chronicle,p.292, - William of Tyre,vol.II,p.146,p.394.

يقول عنه وليم الصوري ما نصه :

أمير عادل يقظ متدين معين لأبناء جنسه راع لتقاليد ، حسن مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٦٩.

٢- ماجد ، العلاقات بين الشرق و الغرب ، ص ١٥٦.

٣- سمايل ، الحروب الصليبية ، ص ٧٢.

٤- نفسه ، نفس المرجع و الصفحة .

مصر عام ١١٧١م لسيادته حسم الصراع حولها ،و الذي استهلك جهداً كبيراً من الجانبين المتحاربين .

ولاشك أن نور الدين كان يحارب في جبهات عديدة في وقت واحد سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين ، ثم أن المرحلة نفسها كانت مرحلة الصراع من أجل توازن القوى بينه و بين المملكة الصليبية ، ومن غير الإنصاف تحميل المرحلة أكبر من إمكانياتها .

إن الباحثين الذين نظروا فيما بعد إلي حجم الإنجازات الكبيرة التي حققها المسلمون في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي ، وتمكنه من إسقاط مملكة بيت المقدس عام ١١٨٧م ، نظروا إلي مجهودات نور الدين محمود بشيء من الاحتقار ، نظراً لعجزه عن تحقيق ما حققه عامله علي مصر ، بينما الأحداث التاريخية تثبت أن صراع نور الدين مع المملكة المذكورة قد مهد السبيل لصلاح الدين لتحقيق ما حققه .

أما اتهام نور الدين بعدم الطموح [١] فهذا ما تفنده الأحداث نفسها ، فقد امتدت ساحة صراعه مع الصليبيين من إمارة الرها إلي أنطاكية ثم طرابلس و بيت المقدس ، وأسقط ما يزيد علي الخمسين من الحصون و المعاقل [٢] ، وتصارع مع جبهتين شمالية و جنوبية في آن واحد ، و الواقع أن طموحاته ارتبطت بحكمته ودهائه السياسي وجهها ، دون اندحار لطاقات دولته و إنجازاته .ذلك عرض لسياسة الدولة النورية في تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية .

١- سمايل ، الحروب الصليبية ، ص ٧٢.

٢- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،جـ٤ ، ص ٢٧٢؛ ابن كثير ، البداية و النهاية ،جـ١٢ ، ص ٢٨٦؛ الذهبي ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص ٨٣ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،جـ٤ ، ص ٥٢٨.